الروائي السوداني عبد العزيز بركة ساكن: لسنا صومعة

– قراء والطيب صالح ليس سقفاً لنا! [1]

حوار: عبد المنعم الشنتوف [2]

يعتبر الروائي والقاص السوداني عبد العزيز بركة ساكن واحداً من العلامات المتميزة في الأدب السوداني الحديث. ويأتي تميز الرجل من القوة التعبيرية التي اتسم بها منجزه النصي والتي تهم مستويي الشكل والمضمون..

اعتمد الكاتب في مختلف تحققاته النصية شرط الحرية في التعاطي مع الموضوعات التي ترتبط عضوياً بالسياق السوداني بمختلف تجلياته، وكان من جراء ذلك أن حُظرت أغلب أعماله من لدن الرقيب السوداني خصوصاً، والمتمثل في المجلس الاتحادي للمصنفات الفنية والأدبية عموماً. نتمثل من خلال القراءة العميقة لأعماله والتي نذكر من بينها ثلاثيته الرائعة: «الطواحين» و«رماد الماء» و«زوج امرأة الرصاص وابنته

(1) نشر هذا الحوار بصحيفة القدس العربي اللندنية بتاريخ 8 مايو 2012.
(2) صحفي مغربي يقيم في بلجيكا.

obeikandl.com

الجميلة»، علاوة على مجاميعه القصصية «امرأة من كمبو كديس» و«على هامش الأرصفة».

يأتي هذا الحوار الإشكالي مع الكاتب بمناسبة الندوة العلمية الدولية التي تنظمها شعبة الدراسات العربية بالجامعة الحرة لبروكسل حول «تمثيلات الحرب الأهلية في الأدب السوداني» في الفترة الممتدة بين 22 و24 مارس 2012م، وتشكل فرصةً للاقتراب من العوالم الممكنة لهذا الكاتب الاستثنائي الذي تمكن من اختراق مناطق الظل والعتمة في المجتمع السوداني.

- هل تمكنت التجارب والحساسيات الجديدة في الأدب السوداني بمختلف أشكاله التعبيرية من الخروج به من حالة الهامش التي عانى منها طويلاً بسبب الهيمنة التي مارستها المراكز الثقافية الكبرى في مصر ولبنان والعراق؟ هل تمكن هذا الأدب الذي يزخر بالكثير من التحققات النصية الجميلة من الخروج من معطف الطيب صالح؟

للسؤال جانبان، الجانب الأول منه أستطيع أن تكون إجابتي لحد ما، فمركزية المشرق العربي يصعب الانفلات منها، أولاً لارتباط تاريخي دجن مقولات كبيرة أخذها الناس مأخذ المسلمات دون أية حوارات عميقة، فجعلت من السودان صومعة قراء: مصر تكتب بيروت تطبع السودان يقرأ، ولا أدري كيف كان ينظر هذا المركز إلى المغرب العربي، الذي يغوص عميقاً في الفلسفة والفكر. ما عاد السودان يقرأ فحسب،

بل يفكر ويكتب، وربما يطبع في المستقبل، فتحققت الآن كتابات متنوعة في شتى ضروب الثقافة، ففي جانب الفكر والفلسفة هنالك الشهيد محمود محمد طه، الذي نظر لما أطلق عليه «الرسالة الثانية من الإسلام»، وكتب كتباً كثيرة وقيمة وعميقة دعماً لفكرته وأهمها كتاب الرسالة الثانية وكتاب رسالة الصلاة، وقد قدم روحه فداءً لفكره، وفي جانب القصة القصيرة والرواية توجد أسماء قدمت الكثير الجيد المتميز، مثل إبراهيم إسحق زينب بليل وبثينة خضر مكي وبشرى الفاضل ومبارك الصادق ومن الأجيال الجديدة منصور الصويم وأحمد الملك وأمير تاج السر واستيلا قايتانو، رانيا مأمون وهشام آدم، وفي جانب الشعر هنالك عالم عباس محمد نور، كمال الجزولي، عبد الله شابو، نجلاء عثمان التوم، وفي مجال النقد محمد الربيع والصاوي وهاشم ميرغني وأحمد الصادق وصلاح النعمان وغيرهم وغيرهم، ولكن المشكلة هنا أن المبدع السوداني لا يعرف كيف يسوق نفسه لتواضع تَعَلَّمه من المتصوفة والصوفية التي تتوغل عميقاً في الثقافات السودانية وشعوبها، والشيء الآخر أن الدولة لا تقوم بواجبها القومي تجاه مبدعيها وتسويقهم داخلياً وخارجياً بل تصبح الحكومات السودانية المتعاقبة أكبر عائق أمام انتشار الأدب والمعرفة السودانيين، وتستخدم في ذلك أقصى درجات العنف: القتل والسجن والمصادرة أو التجاهل. وتبدع في ابتكار القوانين المقيدة لحركة الإبداع والمبدعين: فكيف الخروج من الهامش دون دعم مؤسسة الدولة، ومع تكبيلها لحركة الإبداع والفكر وحريتهما.

أما الجانب الآخر من السؤال، فإجابته نعم، بل الكثيرون لم يدخلوا معطف الطيب صالح في الأصل، الذين تربوا على مدارس كتابية مختلفة، ونشأوا في بيئات غير بيئته، واختلفت نظرتهم للعالم عنه، وأعتبر نفسي أحد هؤلاء الذين لم يكن الطيب صالح عليه الرحمة سقفاً لكتابتي، وذلك مع بالغ احترامي وتقديري له، ولما قدمه للعالم من أعمال عظيمة، ويندرج تحت ذلك الروائي إبراهيم إسحق وأمير تاج السر وغيرهم، بل حتى الروائي الكبير عيسى الحلو الذي أطلق مقولة «الطيب صالح سقف الرواية السودانية» لم يكن الطيب صالح سقفاً له، والغريب في الأمر أن الطيب صالح نفسه لم ير في نفسه ذلك، لقد كان طيباً ومتواضعاً ومتسامحاً جداً. وأرى أن المشكلة هي الإعلام العربي الكسول الذي لا يكلف نفسه جهد المغامرة والبحث، كما أن النقد أيضاً غالباً ما يكتفي بما يتوفر لديه من تحققات، كبار النقاد العرب ما سمعوا بروائي سوداني اسمه إبراهيم إسحق إبراهيم؟ فعلى الآخرين - النقاد والمثقفين في المشرق والمغرب- أن يخرجوا هم من معطف الطيب صالح لينظروا للتحققات الجميلة الأخرى، ولقد بدأ هذا يحدث بالفعل.

- يهمني في هذا الخصوص أن أقترب بك من خاصية رئيسة تسم الأدب السوداني وتتمثل في نزوعه صوب التمثيل لهذه المراوحة بين الانتماء إلى العروبة والإسلام والانفتاح على العمق الإفريقي. ثمة هذه الهجنة، أي المزيج بالمفهوم الإيجابي التي وجدت سبيلها إلى أعمال العديد من الكتاب

من عيار رانيا مأمون وستيلا قايتانو وأحمد الملك وعبد العزيز بركة ساكن وهشام آدم وآخرين.. كيف يمكن أن تسلط الضوء على هذه الخاصية؟

هذا ما يسميه السودانيون هذه الأيام ومنذ عقود مضت جدل الهُوية، وهي مسألة شائكة في السودان هذا البلد الذي تكون أصلاً من هجرات عربية وبربرية وإثيوبية بل أوربية وآسيوية أيضاً، ومرت به كثير من الديانات مثل اليهودية والمسيحية والإسلام، وكان موطناً أصيلاً لبعض الديانات الإفريقية والممارسات الطقسية الشعبية، وتمازج وتقاطع وانصهر وتنافر وتآلف كل ذلك في هذا المكان الشاسع الذي سُمي بالسودان، حدث ذلك منذ قرون كثيرة وما زال باب الهجرات مفتوحاً، وبابا الصراع والتآلف منفتحين، وهذا الشيء كان له أثر كبير على السياسي والاجتماعي والثقافي بالسودان، ورمى ظلاله على إبداع المبدعين من رواية وقصة وشعر، البعض تمثل في التزامه بالهوية العربية الإسلامية وتبناها ودافع عنها، مثل الطيب صالح والروائي عيسى الحلو وإبراهيم إسحق إبراهيم والمفكر البروفيسور عبد الله الطيب وغيرهم، وتمسك الآخر بهوية إفريقية مثل المرحوم النور عثمان أبكر، وفرانسيس دينق، استيلا قايتانو، والشاعر الفيتوري، كما أن البعض تعلق بالوسط حيث تمثلوا العنصرين العربي والإفريقي، الشاعر كمال الجزولي الشاعر عالم عباس محمد نور والشاعر محمد المكي إبراهيم، وآخرون، بالنسبة لي الأمر في غاية الإرباك، فأصنف نفسي: كاتب سوداني يكتب باللغة العربية، أي أنني مزيج من

كل ما وصلني من ديانات إفريقية أو إبراهيمية، وهندوسية وفرعونية ونوبية قديمة، كجور وسحر وممارسات طقوسية، وكل من شابه دمي من مهاجرين زنوج ونوبا وبجا وبربر وعرب وأحباش، وغيرهم من الكوشيين، والذين قد نسوا أصولهم ومن تناساه، أقصد زوبعة من الهويات المتناقضة والمتآلفة، أضف إلى ذلك كتباً ورقصات وأغنيات وسفرا وأنبياء وسحرة وحجاجاً وموهومين ومهووسين، وأولياء لله مجهولين مثل جدي برمبجيل، أضف إلى ذلك ألسنة ولغات كثيرة أسمعها يومياً وتدور في ذهني منها كلمات كثيرة كل لحظة، واللغة كما هو معروف عنها عنصر غير محايد في معادلة الهوية، لا تتخلى عن القيم التي بها أو تكل من نقلها. هذه هي هويتي وكتابتي، فأنا لست عربياً ولست بربرياً ولست أوربياً ولست حبشياً ويعني أنني كل ذلك، وكل دين وكل معتقد وممارسة، أظن أن الأمر أصبح واضحاً الآن، أو شائكاً جداً. يمكن تلخيص ذلك في هذا التوصيف: شخصٌ من السودان، يكتب باللغة العربية. واللغة في هذا المستوى ليست خياراً أو اختياراً، كما أن مكونات هويتي الأخرى ليست خياراً أو اختياراً، فما كان باختياري هو كيف أُحدِّد رؤيتي للعالم وأختار من أكون وكيف، وأن أمتلك الشجاعة التي تمكنني من تحقيق ذلك.

أريد أن أقول، إن كل ما ذكرت، يدور بخلد كثير من الكتاب السودانيين، فعندما يكتبون عليهم قبل أن يلمسوا أقلامهم تحديد موقف من كل شيء، وهي أسئلة إجبارية يواجهونها يومياً: لمن سيكتبون، بأي لغة، ما أسماء أبطالهم، أين هي مسارح حكاياتهم، ما هي نظرتهم للعالم،

من هم، من الآخر، بل ما الشعر، ولا أظن أن هنالك إجابات سهلة لكل ذلك أو بعضه.

- ثمة في أعمالك التي قرأتها بانتظام مراهنة مقصودة على خيار الحرية في التعاطي مع الكتابة الروائية على صعيدي الشكل والمضمون. لاحظت من خلال مصاحبتي لتحققاتك النصية في القصة والرواية وأشير إلى «الطواحين»، «رماد الماء»، «امرأة من كمبو كديس» و«على هامش الأرصفة» على خيار التجريب فيما يهم أسلوب الكتابة الروائية، علاوة على جرأة قوية في الاقتراب من بعض الموضوعات الحساسة التي تنتمي إلى دائرة المقدس الديني على وجه التخصيص. كيف تفسر هذا الاختيار؟

كنت دائماً ألوذ بحريتي عندما يختلط عليَّ الأمر، والحرية أهم من الكتابة، ولا تكون الكتابة إذا غاب شرط الحرية، فالحرية تؤثر على البناء الشكلي للنص كما تؤثر على المنظور والمحمولات الأخرى، لأن الشكل كما يقول الشكلانيون الروس، «إنه شكل لموضوع معين»، فالتمرد على الشكل في روايتي «الطواحين» والجنقو وامرأة الرصاص وبعدها في روايتي مسيح دارفور ورواية ذاكرة الخندريس، كان يمضي متوازياً مع المحمولات الفكرية بهذه الروايات، فالتجريب على مستوى الشكل والحكاية معاً.

لا أتناول الموضوعات الدينية والعقدية بالانتقاد، فهي خيارات ناس لم تتح لهم خيارات أخرى وفقاً للظرف التاريخي واليومي وأحياناً

السياسي، لكنني أهتم بالأخلاق والقيم الإنسانية ما بعد تلك المقولات المعطاة، لأن فهمها أيضاً هو مستويات من الإفهام والتأويل، هنا أجد ما أضع فيه وجهة نظري في الحرب والحب والسلام وضروب الإنسانية الأخرى، فمشروعي هو الإنسان، ليس أكثر أو أقل: فالأدب ليس ديناً كما أن الأديب ليس نبياً، ولكن الأدب يعمل عمل الدين ويقوم الكاتب مقام النبي، وخاصة بعد أن انقطع سيل الرسالات السماوية، فالآن وقت الرسالات الأرضية.

- لاحظت أن كثرة من النقاد تصنف تجربتك الروائية في خانة «السحرية الواقعية». أعتقد في هذا المعرض أن احتفاءك بالتقاليد والعادات والتمثيلات الثقافية للسودان المتعدد لا يتأسس على منطق السحري الواقعي؛ بحكم أنه يرصد التعدد الحقيقي للمجتمع السوداني وبمعزل عن تلكم السحرية الفرائبية، قرأت مرة أن السحري مرادف للشطط في التخييل، هل تعتقد أن ما تكتبه عن الحقيقة السودانية خيال مفرط يناقض ما هو حاصل في الواقع؟

لقد قلت ذلك كثيراً، إن الواقع السوداني هو واقع سحري بطبيعته، وعلى الكاتب لكي يكون منطقياً ومتوازناً فنياً، ولكي يحترمه القراء، عندما يكتب أن يقوم بالحد من هذه السحرية المنفلتة للواقع، ولكي أوضح أكثر للكثيرين الذين لم يعيشوا في السودان أو ما كانوا لصيقين به، مثلاً في بيتنا، أنا وأمي وأهلي كلهم والجيران نؤمن تماماً بما يسمى

«بالبعاتي»، وهو شخص يستيقظ بعد الموت بثلاثة أيام من موته، هو بالطبع من مجموعات سكانية بعينها. كل من في خشم القربة وهي قريتي الصغيرة التي نشأت فيها، ولعهد قريب يعرفون أن بالنهر جنيات تأخذ الناس إلى قاعه، ولقد شاهد الكثيرون هذه الجنيات. يستطيع رجل يُسمى «الكجوري» في بعض قرى كردفان بجبال النوبة أن يأتي بالمطر وقتما شاء وأينما شاء وكيفما شاء، وأن يرسل الصواعق للصوص والمجرمين. بإمكان أي من القراء أن يحمل عدداً كبيراً من العقارب والثعابين السامة جداً في يديه إذا كانت عنده تميمة اسمها «ضامن عشرة». «القمباري» هو رجل لا يستحم إلا عندما ينزل المطر وهو شخصية موجودة في مئات القرى بالسودان ومهمته هي توجيه الجراد وإبعاده عن مزارع أهل القرية مقابل بعض الذرة بعد الحصاد، ومن لم يف بذلك فإنه سيرسل له الجراد في العام القادم، ويولد هذا «القمباري» وفي معصمه نقش لجرادة وأنا استفدت من هذه الصورة في رواية الجنقو مسامير الأرض. هذه ليست أساطير الأولين، وأعرف مئات الحكايات الغريبة والعجيبة التي تحدث لأناس أعرفهم وهي خارج منطق العقل، بل قد تفاجئ الخيال: أمي -رحمها الله- كانت تؤمن بأن ما أكتبه هو تملية من أصحابي الشياطين الذين كانوا يسكنون معنا في المنزل بمدينة القضارف. فالكاتب السوداني لم يتعلم الواقعية السحرية من غابرييل ماركيز وفارغاس يوسا، ومواسير اسكلير وغيرهم، ولكنها هي واقعه المعاش اليومي والطبيعي، «وطبقات ود ضيف الله» هو أول نص سردي سحري في السودان، ألفه أديب

سوداني قبل مئات السنين، وهو يحكي وقائع يومية بسيطة حدثت أو يظن أنها حدثت لشيوخه وأفراد مجتمعه: منهم من كان يطير كالغراب، ومنهم من ينسخ من نفسه عشرات الأشخاص، ومنهم من يستطيع أن يتواجد في أمكنة كثيرة مختلفة في نفس الوقت، ومنهم من يمشي على الماء وعجائب أخرى.

- رواية (الجنقو: مسامير الأرض) مثيرة بوفرة تفاصيلها وأحداثها وشخوصها وتعدد سجلاتها اللغوية والثقافية، وهي رواية تحتفي بالآخر المختلف وبالأقليات العرقية واللغوية والدينية وتمثيلاتهم الثقافية. وقد لاحظت في هذا السياق هيمنة رؤية تسعى إلى نقض منطق الأحكام المسبقة الجاهزة في خصوص الاختلاف والاحتفاء به بوصفه مصدر إثراء وخصوبة. الجنقو أو العمال الموسميون العابرون يتحولون إلى مسامير في الأرض، أي أنهم يكتسبون صفة الثبات. كيف جاء تفكيرك في هذه الرواية؟

يمكن أن أطلق عليها رواية الشعوب السودانية، فالجنقو من معظم قبائل السودان، شماله وجنوبه شرقه وغربه ووسطه، ومكان الرواية هو الحدود الدولية بين إريتريا وإثيوبيا والسودان، وهذا المكان أيضاً يمثل طريقاً للحجاج في قديم الزمان الذين يعبرون إفريقيا إلى باب المندب، إلى اليمن إلى الجزيرة العربية، وهذا المكان يحتوي على أكثر الأراضي خصوبة في السودان وأصلحها لزراعة السمسم والذرة، وهو أيضاً نقطة

نزاع حدودية بين السودان وإثيوبيا حيث تحتل إثيوبيا مثلث الفشقة الخصيب وتستغله من أجل توفير الذرة لشعوبها التي تعاني من قلة الأراضي المسطحة ببلدهم، وتسكن فيه قبائل الدول الثلاث في تداخل بشري ولغوي وثقافي فريد، إذاً المكان كان له أثر كبير في تحديد شكل الرواية وجوّها، بل نظام الراوي فيها بالأخص؛ فالرواة في رواية الجنقو متعدِّدون، وكل شخص فيها كان راوياً بطريقة أو بأخرى، ويلاحظ أيضاً سيطرة نظام الحكايات في الخمارات الشعبية على طريقة الروي، حيث لا توجد حقيقة كاملة مسلم بها، وتختلف الحقائق وفقاً لموقع الراوي، وأحياناً يصبح القول حقيقة في لحظة حكيه فقط، فمن هو ود أمونة خارج أنظمة الحكي والقوالات وما يشبه الندوات في الحانات الشعبية؟

كما أن الرواية استفادت من التنوع اللغوي الجميل ونظام اللهجات واللكنات، ويستطيع أي شخص من منطقة القضارف أن يحدد قبيلة المتحدث عن طريق نطقه في الرواية، فلقد كنت دقيقاً جداً في ذلك، أي أن بنية الشخصية تضمنت لغتها أيضاً، سنشرح ذلك أكثر في مكان آخر من الحوار. رواية الجنقو هي دعوة للتسامح والمحبة، ودعوة للتخلي عن الزيف والادعاء، دعوة لكي يعيش الناس الحياة بجمال وصدق، منطلقين من معطيات واقعهم، مهما كان هذا الواقع حزيناً وأليماً وتسيطر عليه دولة بوليسية تلوي عنق حقائقه بشدة، ويحتكره اللصوص والمرابون والأنبياء الكذبة، بإمكان الأشخاص أن يصنعوا ثورتهم أيضاً بما لديهم: هنالك نافذة تظل دائماً مضاءة. الغريب في أن هذه المجموعات غير المتعلمة،

تعي جيداً موقعها التاريخي ومكانتها الاقتصادية، وهم الذين أطلقوا على أنفسهم اسم مسامير الأرض ويقولونها بفخر، ويظنون أنَّ الأرض بدونهم سوف تنهار، فهم المسامير التي تبقيها ثابتة.

- اعتمدت في هذه الرواية صيغة في الكتابة تحتفي بالعامية السودانية؛ بحيث يمكن القول إنها السمة المهيمنة. لماذا هذا التوظيف المكثف للعامية؟ وهل تعتقد أن من شأن ذلك أن يشكل عائقاً أمام تواصل أكثر فاعلية مع جمهور المتلقين في العالم العربي؟ وبتعبير آخر، ألا يشكل هذا الحضور القوي للعامية سبباً في تقليص انتشار هذه الرواية الجميلة؟

استخدامي للعامية السودانية ليس استعراضاً ولكني كنت مجبراً على ذلك، ساقني لها الأبطال الذين لا يعرفون اللغة العربية الفصحى، وهم في الغالب أميون، فلا يبقي للرواية ذرة من الصدق الفني عندما تقول الصافية الأمية البسيطة التي لم تدخل المدرسة في حياتها لود فور الذي مثلها في ذلك: إلى أين أنت ذاهب يا أيها الرجل؟ إلا إذا تلبستها روح شيطان مثقف في حلقة زار، ومعروف أن اللغة العربية الفصحى لا توجد في الشارع السوداني، إنها لغة تدوين ومدارس، كما أن بناء الشخصية يتضمن لغتها أيضاً وطريقة نطقها للجملة ومشيتها على الأرض وعاداتها وتقاليدها، وأي خلل في واحدة من تلك قد يربك القراء. في المستقبل سيتقبل الناس العامية السودانية وسيحبونها، عندما يحبون الآداب والفنون

السودانية. هذا لا يمنع أنني في رواية مسيح دارفور اتبعت طريقة أخرى غريبة لكي أتجنب الاستخدام المفرط للعامية، وهي تحويل الكلام المباشر إلى كلام غير مباشر، وبذلك تجنبت كثيراً من الحوارات، كما أنني قمت بما يشبه الترجمة للحوارات التي يفترض أنها دارت في الرواية باللغات الدارفورية المحلية، وكل ذلك رغبة منا في أن نسهل مهمة القارئ العربي.

- لك حكاية طويلة ومؤسفة مع الرقيب في البلاد العربية عموماً والسودان بشكل خاص. وكانت أغلب أعمالك عرضة للحظر وآخرها رواية «الجنقو: مسامير الأرض». هل تعتقد أن مشروعك الروائي لا يمكن أن ينمو ويترعرع ويستوي على عوده إلا في سياق من الحرية والديمقراطية؟ هل أسهم ما يسمى بالربيع العربي في مضاعفة مساحة الحرية؟

لقد عانيت كثيراً وما زلت أعاني من الرقيب والوصاية الحكومية على كتابتي، وهذا لا يخيفني كثيراً ولو أنه يربكني، ولكنني أكتب بصورة متواصلة ولا أضع اعتباراً للقوانين المقيدة لحرية الكتابة والنشر في بلدي، طالما أستطيع أن أنشر كتبي في مصر وسورية وأوروبا أيضاً، فالحرية دائماً متوفرة في مكان ما من العالم، ويحزنني أن غالبية القراء في السودان لا يستطيعون الحصول على كتبي المصادرة في الداخل، خاصة في المدن التي كتبت عنها والناس الذين هم أبطال رواياتي، فأنا أحلم باليوم الذي تتوفر فيه كتاباتي في المكتبات الصغيرة بالقرى والمدن البعيدة، ويستطيع الناس شراءها دون أن يلتفتوا يميناً ويساراً خوفاً من الشرطي.